مجلة العلوم الإسلامية مجلد: 04 عدد 01 جوان 2022 ـــــ ISSN : 2773-2770

ص ـ ص: 134 - 177

نظرات حول التعليم المتكامل في التراث الفقهي بالغرب الإسلامي مع الإشارة إلى كتب النوازل الفقهية

Perspectives on integrated education in the jurisprudential heritage in the Islamic West With reference to the books of jurisprudence events

❁ سعيد امختاري(*)

جامعة محمد الأول بوجدة، المملكة المغربية

saidamakhtari77@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/03/15 تاريخ القبول: 2022/05/22

الملخص:

عرف مجال التربية والتعليم في التراث الإسلامي تطورا كبيرا منذ عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم عهد أصحابه ومن جاء بعدهم من الأجيال، ولقد أسهم الفقهاء في هذا المجال إسهاما كبيرا حتى تركوا لنا ثروة غنية جعلتنا ندرك أن الفقهاء كانوا يحرصون على نشر التعليم أولا، ثم كانوا بعد ذلك يحرصون على أن يكون هذا التعليم متكاملا يراعي التوازن في تكوين شخصية المتعلم باعتباره إنسانا مسلما مكونا من جسدا وروح، وخلق أصلا لعبادة الله الذي خلقه، وهذه المحاولة تتوخى تتبع معالم هذا التكامل المعرفي في تراثنا التربوي

(*) المؤلف المرسل

الإسلامي من خلال منظومة الفقه الإسلامي، مع الإشارة إلى إسهام فقهاء الغرب الإسلامي في هذا المجال تحقيقا لعالمية انتشار الدين الإسلامي. وبما أن بعض الباحثين ينطلقون في عالمنا العربي الإسلامي من التجربة الغربية الأوربية في أبحاثهم التربوية وكأنه لا وجود لفكر تربوي إلا ما جادت به هذه الحضارة الغربية، فقد حاولنا من خلال هذا أن نسهم بإبراز ثراء التراث الفقهي الإسلامي لأجل إثبات استقلالية هذه الأمة في فكرها التربوي بما يتناسب مع مقوماتها الحضارية.

الكلمات المفتاحية:

التربية، التعليم، التكامل، الفقهاء، الفقه الإسلامي.

Abstract:

The field of education in the Islamic heritage has witnessed a great development since the era of the Prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace, and then the era of his companions and those who came after them from the generations. Then they were keen that this education be integrated and take into account the balance in the formation of the learner's personality as a Muslim human being composed of body and soul, and originally created to worship God who created him, and this attempt seeks to follow the parameters of this knowledge integration in our Islamic educational heritage through the system of Islamic jurisprudence With reference to the contribution of Western Islamic jurists in this field in order to achieve the universality of the spread of the Islamic religion.

Since some researchers in our Arab Islamic world start from the Western European experience in their educational research as if there is no educational thought except what this Western civilization has strived for, we have tried through this to contribute to highlighting the richness of the Islamic jurisprudential heritage in order to prove the independence of this nation in its educational thought, including commensurate with its cultural components.

key words:

Education, education, integration, jurists, Islamic jurisprudence.

مقدمة

عندما ننظر في الأحكام التي تروج حول التربية والتعليم في تاريخنا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية، ربما يمكننا القول: إن كثيرا منها يتسم بالتسرع وعدم الموضوعية، وفي راينا أن السبب في ذلك هو عدم تخصيص وقت وجهد كافيين للاطلاع على دقائق وتفاصيل هذا التراث الذي ظلم كثيرا، لأن بعض الدارسين حكموا عليه بالواسطة، وهذه الواسطة تتنوع مظاهرها، فمنها قراءات واستنتاجات شخصية تصيب وتخطئ، ومنها دراسات استشراقية غربية كتبت في سياق التدافع الحضاري، والهجوم على مقوماتنا الحضارية، بغية النيل من تاريخنا وحضارتنا، وتزهيد الأجيال المسلمة في تراثها وتاريخها، لتعتقد بعد ذلك

أن الريادة في التربية والتعليم لا توجد إلا عند الحضارة الغربية وتاريخها، لتكون المركزية الغربية هي القدوة والمثل الأعلى.

وهذه المحاولة تروم الاطلاع على بعض التراث التربوي الإسلامي العظيم من خلال المنظومة الفقهية، لأن التراث الفقهي الإسلامي قد حوى كنوزا دفينة في شتى المجالات، ولم تدرس الدراسة المتقنة إلا قليلا، مع أن الفقه الإسلامي فقه عملي واقعي، وهو ما يجعل ما نستخرجه منه من معارف ومعلومات، أكثر واقعية من تلك التي قد نجدها في مصنفات أخرى غير المصنفات الفقهية، مع أهميتها الكبرى هي كذلك.

ولقد بدا لنا أن نحاول كشف بعض ملامح الفكر التربوي الإسلامي من خلال التأمل فيما حوته مصنفات فقهائنا، وخاصة كتب النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي، لأننا نريد من خلال ذلك التعرف على بعض مميزات الفكر التربوي في المصنفات الفقهية عامة، وبعض ملامح التكامل المعرفي والعلمي التي ميزت التربية والتعليم من خلال نوازل أفتى فيها الفقهاء عندما استفتوا فيها.

وقد تبين لنا من خلال النظر أن التعليم المتكامل الذي يراعي التكامل في العلوم والمعارف من جهة، ويراعي النمو الجسدي والنفسي والمهاري والوجداني لدى المتعلم من جهة أخرى، قد كان حاضرا بقوة في الفقه الإسلامي ومصنفات الفقهاء.

ليس الغرض من هذه الدراسة إحراء المقارنة بين التربية والتعليم في تراثنا الإسلامي، وبين التربية والتعليم عند الغربيين والحضارة المعاصرة، وإنما الغرض هو الكشف والبيان عما في حضارتنا من مبادرات ومحاولات كانت –في نظرنا- كفيلة بأن تكوّن لنا أرضية صلبة

نقف عليها لننشئ منها نظريات تعليمية تحتفظ بأصولنا اللغوية والدينية والثقافية، وفي نفس الوقت تستجيب للتطورات التي تعرفها حضارة اليوم، فلا يخفى على أحد أن ما توصلت إليه الحضارة الغربية اليوم في التربية والتعليم إنما هو بالاستناد إلى تراثها الفلسفي والديني والتاريخي والروحي، ثم ما استفادته من تراثنا الذي احتكت به قرونا من الزمان، إضافة إلى التجربة العلمية العملية. فلا شيء في الحضارة الغربية صنع بالصدفة والمعجزة، وإنما بتراكم تجارب أسلافهم السابقين، ثم أخذوا يدرسون ويطورون ويبدعون من داخل حضارتهم، وما كانت الحضارة الغربية لتفلح لو أنها انطرحت بين ايدي حضارة أخرى تملي عليها ما يجب فعله، وما يجب تركه. وقد أثبتت الملاحظة أن أي دولة أو حضارة في عصرنا لم تتقدم إلى الأمام إلا بعد تحررها من قيود التبعية للآخرين.

إننا لا زلنا نطمح من خلال ما سبق من دراسات الدارسين، ثم من خلال محاولتنا هذه إلى أن تستقل حضارتنا يوما ما بالإبداع والحرية في الإنتاج والعمل، والتفكير والتنظير، وفقا لمقوماتنا الحضارية المادية والروحية.

وقبل الشروع في هذا الموضوع لا بد لنا من ذكر وجهة نظرنا في التربية والتعليم انطلاقا من التراث الإسلامي عموما والفقهي خصوصا، وهي أن دراسة خصائص التربية والتعليم في حضارتنا الإسلامية لا ينبغي أن تخضع لمنهج المقارنة أو المقاربة مع ما أنتجه الفكر الغربي، لأن الفكر التربوي الغربي أنتج في بيئته متأثرا بالفلسفة العلمانية أو العلمانية الإلحادية، أو في أحسن أحواله يكون متأثرا بالفكر المسيحي أي منبثقا عن العقيدة المسيحية، أو هو على كل حال متأثر بعناصر هوية المجتمع

الغربي. بينما الفكر التربوي الإسلامي الذي لا ينكره عاقل، فقد نشأ في رحم العقيدة الإسلامية واللغة العربية، وتحت رعاية المؤسسة الفقهية الشامخة في تاريخنا المجيد، والفكر التربوي الذي أنتج هذه الأجيال العظيمة من الفقهاء والعلماء والأدباء والفلاسفة وغيرهم (...) لم يترك كل هذا الأثر العظيم متأثرا بفكر حضارة أخرى ولا مستجديا رحمتها ومعونتها، وإنما كان فكرا تربويا مستقلا، وهكذا كان يجب أن تستمر أمتنا.

أما منهج المقارنة أو المقاربة أيضا فلا ينتج فكرا مستقلا وإنما يزيد هذه الأمة شعورا بالنقص، وشعورا بالحاجة إلى ما عند غيرها؛ وهو العالم الغربي الذي يبدو لكثير من الناس متفوقا بما عنده من العلوم والمناهج.

أهمية الموضوع

تتجلى أهمية الموضوع في العناصر الآتية:

- تعلقه بالتربية والتعليم وهو الدليل على تقدم الحضارة أو تخلفها؛

- بيانه مدى أصالة التربية والتعليم في التراث التربوي الإسلامي العربي؛

- إشارته إلى التكامل في التربية والتعليم في التراث العربي الإسلامي، ردا على من يقول إن التعليم في الحضارة الإسلامية كان مجرد حفظ وعرض واستظهار؛

-إشارته إلى مجال قل من يهتم به وهو المجال الفقهي، أو النوازل الفقهية خاصة في الغرب الإسلامي، إذ في الفقه نجد أحكاما خاصة بالتربية والتعليم تضبط حركية هذا المجال، بحيث لا يخضع لأهواء

المعلمين والمتعلمين وغيرهم، كما أن الفقهاء يتكلمون انطلاقا من ممارساتهم وتجارهم العملية؛

إشكالية البحث

يتحدث كثير من الدارسين حول التكامل المعرفي والثقافي في التربية والتعليم، ويلاحظ في بعض تلك الدراسات أنها تدرس هذه القضية باعتبار أنها من حسنات البحث التربوي المعاصر، ثم إن هذه الدراسات لا تعرج على بحث قضية التكامل المعرفي في التربية والتعليم لدى فقهاء الإسلام في تاريخ الحضارة الإسلامية، وهذه مشكلة ملاحظة، وإن كنا لا نجزم أن جميع الدارسين على هذا المنوال. وهذا ما جعلنا نجول جولة متواضعة في تراثنا التربوي من خلال كتب النوازل، التي هي من أهم المصنفات التي تعبر عن حركة المجتمع الإسلامي وتصفه وصفا دقيقا واقعيا.

خطة البحث:

لأجل إيجاد حل مناسب لإشكالية البحث فقد عملت على الخطة الآتية:

- **مقدمة:** بينت فيها أهمية الموضوع وإشكاليته، وخطته، وأهدافه، والمنهجية المتبعة فيه، وكذا الدراسات السابقة فيه.

وبعد هذه المقدمة قسمت البحث إلى عنصرين كبيرين وفي كل عنصر مجموعة من الفروع التابعة له، وذلك كالآتي:

1- تطور الفقه الإسلامي والتكامل المعرفي في تعليم الصبيان:

وفيه رصدت تطور التربية والتعليم في الإسلامي منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم مرورا بعهد الصحابة رضي الله عنهم، وبعصر

التابعين، ثم من بعدهم من الفقهاء، مع الإشارة إلى أهم الدارس التربوية التي ظهرت تزامنا مع تطور الحضارة الإسلامية.

2 - التعليم المتكامل في التراث الفقهي بالغرب الإسلامي:

وفيه تناولت بعض العناصر المهمة مثل:

- **التكامل في التكوين الشخصي**: بحيث ركزت على اهتمام الفقه الإسلامي والفقهاء بالأبعاد المختلفة للشخصية الإنسانية للمتعلم، بين ما هو معرفي وما هو وجداني، وما هو مهاري، كما يشير إلى ذلك بعض الدارسين المعاصرين، وإن كنت لا أعتمد كثيرا أسلوب المقارنات والمقاربات في هذا البحث.

- **التكامل في المعارف المكتسبة:** وذلك بالإشارة إلى أن التعليم في الفقه الإسلامي ينفتح على كل ما له علاقة بحياة المتعلم الدنيوية والأخروية.

- **التعليم عند الفقهاء شرف يتمنونه وأمانة يخشونها**: أشرت في هذا الفرع إلى هيبة الفقهاء للتعليم واستحضارهم أنه من أصعب المهام في هذه الحياة، فلا يكفي فيه أن يسمى المعلم معلما، بل لا بد من استحضار عظمة الأمانة الملقاة على عاتق هذا المعلم الفقيه.

- **علاقة التربية والتعليم بالفقيه والمفتي في الحضارة الإسلامية**: وفي هذا الفرع بينت أن الفقيه حاضر في مجال التربية والتعليم كما هو حاضر في المجالات الأخرى، وحضوره هذا من شمولية الفقه الإسلامي لكل مجالات الحياة.

- **بعض ملاحظات حول النوازل الفقهية المتعلقة بالتعليم**: وهذا الفرع هو أكبر مقصود في هذا البحث حيث بينت نماذج من شؤون التربية والتعليم من خلال النوازل الفقهية، كما طرحت على الفقهاء

وأجابوا عليها، وهذه النماذج تؤدي إلى نتيجتين: أولاهما معرفة تشعب المعلومات التربوية لدى فقهائنا، وثانيتهما: استخلاص الأحكام الشرعية لبعض الأساليب التربوية للدلالة على أن تنظيم التربية والتعليم في الإسلام يخضع للأحكام الشرعية ولا بد، وليس كما يحدث في النظريات التربوية المعاصرة، بحيث يتم إعداد أغلبها بعيدا عن استشارة الفقهاء، وما قد يصدرنه في ذلك من أحكام شرعية.

وفي الأخير جعلت لهذا البحث ما يأتي:

خاتمة: بينت فيها أهم النتائج المتوصل إليها.

توصيات: ذكرت فيها ما يساعد على تجلية غنى وثراء المنهج التربوي الإسلامي من خلال التراث الفقهي والنوازلي، خاصة في الغرب الإسلامي.

لائحة المصادر والمراجع: حاولت فيها قدر المستطاع التقيد بما ورد في نموذج النشر في المجلة.

أهداف البحث

يتوخى هذا البحث العثور على مواطن القوة والتطور في التراث التربوي الإسلامي، كما يتوخى أيضا جمع أكبر قدر ممكن من المعارف والمعلومات المتعلقة بالتراث التربوي الإسلامي وإزالة الغبار عليها، لبيان ملامح الشخصية الحضارية للأمة الإسلامية وما تركته هذه الحضارة من بصمات جليلة في مجال التربية والتعليم، وهو ما كان قاعدة صلبة للتوصل إلى نظريات تربوية أصيلة في المجتمع الإسلامي لو أن أهلها واصلوا طريق أسلافهم من الفقهاء والأئمة والمؤدبين والمربين.

المنهجية المتبعة في البحث

حاولت في هذا البحث أن أتبع أكثر من منهج، كالمنهج الوصفي، والمنهج التحليلي، والمنهج المقارن عند الضرورة، وذلك لأن هذه المناهج كلها يكمل بعضها بعضا في البحث.

الدراسات السابقة في الموضوع

لم أستطع أن أحصل على بحث مطبوع في هذا الموضوع، غير أنني علمت أن أحد الأساتذة بالمغرب قد أنجز بحثا للدكتوراه، ناقشه بجامعة محمد الأول بوجدة، تحت عنوان، نوازل التربية والتعليم في الغرب الإسلامي جمعا وتصنيفا ودراسة، ولم أتوصل بعد بهذه الدراسة لأستفيد منها، وإن كانت فكرة هذا المقال قد شغلت بالي منذ ما يقرب عقدا من الزمن.

1- تطور الفقه الإسلامي والتكامل المعرفي في تعليم الصبيان

منذ نزول القرآن الكريم داعيا إلى القراءة آمرا بها أمرا مباشرا في قوله تعالى: ﴿لم لى لي ما مم نر﴾ [العلق: 1]، انطلق المسلمون في طلب العلم امتثالا لأمر الله تعالى، وتلبية لرغبتهم في التعلم ونيل الثواب عند الله، متطلعين إلى العلم النافع الذي يجعلهم أكثر تحقيقا لمقصد العبودية لله تعالى.

ولقد كان القرآن الكريم نبراسهم ونورهم في التعلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم معلمهم الأعظم الذي ما رأوا مثله قبله ولا بعده كما قال معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه[1]، وقد وصف الله

[1] في الحديث الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله عن حدثنا أبو جعفر محمد بن الصباح، وأبو بكر بن أبي شيبة، - وتقاربا في لفظ الحديث - قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن حجاج الصواف، عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه، ما شأنكم؟ تنظرون

تعالى نبيه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بصفة التعليم، في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ((هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ))[الجمعة: 2].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلن في أصحابه أنه معلمهم، من ذلك قوله في الحديث الذي رواه ابن ماجة وغيره عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده، أعلمكم، إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة، ولا تستدبروها. وأمر بثلاثة أحجار. ونهى عن الروث، والرمة. ونهى أن يستطيب الرجل بيمينه»[2].

وفي حديث آخر روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه أنه بعث معلما، كما عند ابن ماجة وغيره عن عبد الله بن عمرو، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حجره، فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين، إحداهما يقرءون القرآن، ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل على

إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله، ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»، صحيح مسلم، في كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم الحديث: 537. مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[2] سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء بالحجارة، والنهي عن الروث والرمة، رقم الحديث: 313، قال الألباني رحمه الله: حسن صحيح.

خير، هؤلاء يقرؤون القرآن، ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما» فجلس معهم"[3].

ولقد بحث كثير من العلماء والمصنفين في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام رضي الله عنهم جميعا، وكان من أفذاذ المؤلفين في هذا المجال، الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، في كتابه النفيس: "الرسول المعلم صلى الله عليم وسلم وأساليبه في التعليم" ذكر فيه أربعين أسلوبا من أساليب تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته، كل أسلوب منها يدل على عظمة قدر النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته الجليلة في التربية والتعليم. قال الشيخ أبو غدة: "ومن تأمل حسن رعايته للعرب مع قسوة طباعهم، وشدة خشونتهم، وتنافر أمزجتهم، وكيف ساسهم واحتمل جفاءهم، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه، والتفوا حوله، وقاتلوا أمامه ودونه أعز الناس عندهم: آباءهم وأقاربهم، وآثروه على أنفسهم، وهجروا في طاعته ورضاه أحباءهم وأوطانهم، وعشيرتهم وإخوانهم، وكان كل ذلك –وأعظم منه- منهم له صلى الله عليه وسلم، وهو لم يمارس الكتابة والقراءة، ولا طالع كتب الماضين، ولا أخبار المربين السالفين (...) من تأمل هذا تحقق له بنظر العقل أنه صلى الله عليه وسلم هو المعلم الأول، والنبي المرسل، وأنه سيد العالمين (...)."[4]

[3] رواه ابن ماجة في سننه، كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم الحديث، 229، والحديث رواه عدد كبير من المحدثين، وقد ضعفه أهل مصطلح الحديث. مثل الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. وقال الشيخان: أبو غدة وعبد الحي الكتاني: إن للحديث شواهد صحيحة، انظر هامش ص: 9 الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الأولى، 1996م..

[4] ينظر هامش ص: 11، من كتاب: الرسول المعلم وأساليبه في التعليم.

ويستحيل في عقل العاقل أن يتلقى الصحابة الكرام رضي الله عنهم كل هذا الخير الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لا يكون له أساليب عظيمة في التربية والتلقين والتعليم، ويستحيل عند جميع العقلاء ألا يكون لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم هدي تربوي ومنهج تعليمي لا يضاهيه منهج على وجه الأرض، خاصة وأن النبي عليه الصلاة والسلام بعث وقد عرفت الحضارات القديمة -كالحضارة الإغريقية اليونانية مثلا- أساليب وطرقا في التعليم، فلا يمكن أن تكون تلك الحضارات ومناهجها التعليمية أفضل ولا أرقى مما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وعلى ذلك الهدي النبوي والمنهج التعليمي للرسول صلى الله عليه وسلم سار جيل الصحابة الكرام رضي الله عنهم، مقتفين أثر النبي المعلم عليه الصلاة والسلام، فكانوا يعلمون الناس الخير، وكانوا يعلمون القرآن الكريم ويحفظونه ويفسرونه، وكانوا يعلمون السنة النبوية ويحفظونها ويفقّهون فيها، منهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي "بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة مع عمار بن ياسر، وكتب إليهم: إني قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميرا وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا"[5]. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يصف معاذ بن جبل بمعلم الخير، كما أورد عنه ابن عبد البر أنه قال: "كان معاذ بن جبل معلما للخير مطيعا لله ولرسوله"[6].

وفي هدي الصحابة نماذج يصعب حصرها في مجال نشر العلم والتفنن في أساليبه، مع أن هؤلاء الصحابة ما تأثروا بتراث الأمم الأخرى

[5] أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م. 992/2.

[6] نفس المصدر، 1407/3.

في التعليم والتربية كاليونان مثلا، وإنما هديهم في ذلك القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن أبي حاتم الرازي: "حدثنا عبد الرحمن نا إبراهيم بن مرزوق البصري نزيل مصر، نا عبد الله بن داود الخريبي عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال يا أبا الدرداء جئتك من المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ولا جئت لحاجة؟ قال لا، قال ولا جئت لتجارة؟ قال لا، قال ولا جئت إلا لهذا الحديث؟ قال لا، قال فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله عز وجل به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم"[7]. وفي هذا الأثر نتلمس التجرد الخالص للتعلم والتعليم، في الحوار الذي دار بين أبي الدرداء والرجل الذي سأله عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وأورد ابن أبي حاتم الرازي أثرا آخر في هدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعليم والتعلم قال: "حدثنا عبد الرحمن نا محمد بن الحسين بن إشكاب نا سعيد بن سليمان نا عباد يعني ابن العوام نا الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري أنه قال مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصينا بكم"[8].

[7] ابن أبي حاتم الرازي (المتوفى: 327هـ)، الجرح والتعديل، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1271 هـ 1952 م، 12/2.

[8] المصدر السابق، 12/2.

وقال ابن أبي حاتم الرازي: "حدثنا عبد الرحمن نا محمد بن الوزير الواسطي نا إسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثوري عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الناس لكم تبع، قال كان إذا أتوه قال مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه سيأتيكم أناس من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا (...) وقال الرازي أيضا: حدثنا عبد الرحمن نا علي بن حرب الموصلي نا أبو داود - يعني الحفري - عن سفيان - بإسناده نحوه وزاد فيه: يتعلمون منكم ويتفقهون في الدين"[9].

ومن هنا يتبين لنا أنه قد كان صحابة النبي صلى الله عليه وسلم رجالا ونساء، يعلمون الناس، ويجلسون للتعليم، فكان منهم معلمو الأحاديث والسنن، وكان منهم معلمو القرآن الكريم، وكان منهم معلمو الفقه والفرائض، وكان منهم المفتون وكان منهم غير ذلك من معلمي الناس الخير، والعلم النافع كله خير.

وقد أورد علماء السير والتاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى صحابته بتعليم الناس من بعده، وهو أمر عظيم، ووصية من أجل الوصايا، ومن ذلك ما رواه ابن عساكر بإسناده قائلا: "خبرنا أبو المظفر بن القشيري أنا أبو الوليد الحسن بن محمد البلخي الدربندي نا أبو منصور عبد الله بن عيسى بن إبراهيم بن علي سعيد الهمذاني بها أنا أبو بكر عمر بن احمد بن خرجة نا أبو الحسن علي بن محمد الخوارزمي ببروجرد نا الحسن بن عيسى البسطامي نا علي بن عاصم عن أبي هارون العبدي قال كنا إذا آتينا أبا سعيد قال مرحبا بوصية

[9] نفسه.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا وما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيأتيكم بعدي اقوام يتعلمون منكم فإذا جاؤوكم فعلموهم وألطفوهم الصواب".[10]

لقد اشتهرت أسماء عظيمة في تاريخ الصحابة عرفت بالتحديث والتعليم والتفقيه، كأبي هريرة وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهم كثير (...) رضي الله عنهم جميعا.

وفي عصر التابعين ازدهر التعليم وانتشر، وعرف في ذلك العهد عدد كبير من الأئمة الأعلام ممن ضربت إليهم أكباد الأبل، وتحلق حولهم من طلبة العلم جم غفير وعدد لا يكاد يحصر. فنشروا العلم الذي ورثوه عن الصحابة رضي الله عنهم، وهو إرث النبي صلى الله عليه وسلم، فبدأ مجال التعليم تبرز معالمه الدالة على سيره نحو التطور استجابة لتطورات الحياة الإنسانية، وقوة نظام الدولة الإسلامية التي نشأت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لم تزل تنمو وتشتد وتتعدد مؤسساتها حتى كان التعليم من أرقى تلك المؤسسات التي روعيت في تكون دولة الإسلام.[11]

إن هذا الإرث النبوي الجليل، قد تلقاه عنه صحابته رضي الله عنهم، ثم تناقلته الأجيال في أقطار وأرجاء الأمة الإسلامية، حتى حقق بذلك عالمية تابعة لعالمية انتشار الإسلام.

---

[10] أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ تاريخ دمشق،)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ - 1995 م. 384/13.

[11] ذكرنا هنا تطور التربية والتعليم في الإسلام ذكرا مختصرا، وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ينظر مثلا: التربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نشأتها وتطورها، حامد سالم عايض الحربي، رابطة العالم الإسلامي، 1419 هـ

2- التعليم المتكامل في التراث الفقهي بالغرب الإسلامي

نقصد في هذا البحث بالتعليم المتكامل نوعين من التكامل:

2-1: التكامل في التكوين الشخصي، منذ قديم الزمان في تاريخنا الإسلامي، كان النظر إلى تكوين الإنسان قائما على الخصائص العامة للإسلام، مثل الوسطية والاعتدال، أو التوازن، أو الشمول، وغير ذلك، وهنا نركز على التوازن أو الاعتدال والوسطية بين مطالب المادة والجسد ثم مطالب النفس والروح، فالإنسان في الإسلام، ليس جسدا بلا روح، وليس روحا بلا جسد، وإنما هو ذلك المخلوق الذي يوازن بين مطالب جسده وروحه معا، وهذا هو المنهج الذي كان يخضع له الطفل في حلقة الدرس والتعليم والتأديب، وهذا ما تحفل به كتب التربية والتعليم في تراثنا الإسلامي، واليوم نرى في العالم اتجاها نحو إعراق المتعلمين في الجانب المادي من هذا العالم، بينما يتم تغييبه عن المجال الروحي شيئا فشيئا، على غرار ما يحدث في العالم الغربي المتجه بكل حواسه نحو المادة لا غير.

وحرصا على هذا التوازن، فقد كانت الفتاوى والنوازل التي تحفل بها الموسوعات الفقهية في الغرب الإسلامي تتناول هذه الجوانب المختلفة من تكوين المتعلم.

2-2: التكامل في المعارف المكتسبة، ونقصد بذلك تمكين المتعلم من تعدد المعارف والمهارات، وأولى هذه المعارف معرفة التوحيد والإيمان بالله الخالق، لأن الأصل في الإنسان أن يولد وهو يعرف خالقه، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:[12] "ما من مولود إلا يولد

[12] رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (لا تبديل لخلق الله)، [الروم: 30]: لدين الله"، رقم الحديث: 4775. ورواه غيره من المحدثين. البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى

على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»، ثم يقول: ((فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ))[الروم: 30].

وقال العلامة الملا علي القاري في هذا الحديث: "أي فطرة الإسلام من التوحيد والعرفان والمعنى أنه لو خلى وطبعه لما اختار إلا طريق الإيمان على وجه الإحسان لما جبل عليه من الطبع المتهيء لقبول الشرع فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها مائلاً إلى غيرها. وقيل معناه: كل مولود يولد على معرفة الله تعالى، والإقرار به، فلا تجد أحداً إلا وهو يقرّ بأن الله صانع، وإن سماه غيره إلهاً".[13]

وفي هذا السياق نستشهد بقول محمود شاكر: "ورأس كل ثقافة هو الدين، بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أي دين كامل أو ما كان في معنى الدين وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة، وبقدر تغلغله في أغوار النفس تغلغلا يجعل صاحبها قادرا على ضبط الأهواء الجائرة، ومريدا لهذا الضبط، بقدر هذا الشمول وهذا التغلغل في بنيان الإنسان، تكون قوة العواصم التي تعصم صاحبها (...)".[14]

الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

[13] شرح مسند أبي حنيفة، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ)، تحقيق: الشيخ خليل محيي الدين الميس، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1405 هـ - 1985 م، 225/1.

[14] محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مطبوع مع كتاب المتنبي، مكتبة الخانجي، 1987م، ص: 31.

إن تربية الأجيال على العقيدة الإسلامية الصحيحة، يجب أن تضمن رسائل عظيمة هي من صميم مقاصد الدين الإسلامي، وأن تتخذ هذه التربية على العقيدة عدة اتجاهات لدى المتعلم، "وذلك بربطه بالآخرة وتخيل مشاهد القيامة واستحضارها مه استغلال الكون والبيئة المحيطة (...) إن التربية الإسلامية تأخذ من ميدان العقيدة منطلقا لأعمال العقل البشري في إظهار دقائق الإسلام وربطها بالحياة، ومن هذا الميدان تستمد التربية الدعم الصائب بالحجج والبراهين والرد على المبادئ الدخيلة على الفطرة، كما يعطي مجالا واسعا في الموازنة بين التربية الإسلامية وغيرها من التربيات الأخرى، هذه الموازنة لا تعصب فيها، ولكن لإخراج الحق ولنفع الإنسانية كلها، وما الإنسانية كلها إلا من ذرية آدم عليه السلام، وهذه الموازنة لا تعني مقارنة الحق بالباطل، وإنما هدفها إظهار الحق، لأن الحق أحق أن يتبع"[15].

ويتعلم المتعلم كل العلوم الأخرى الدينية وغير الدينية، كتحفيظ القرآن الكريم وما يتعلق به من العلوم التي تعين على فهمه وتدبره والعمل به، وغير ذلك من العلوم المختلفة التي يحتاجها كل متعلم، أرسل به والداه إلى المدرس أو المؤدب.

ويتبع ذلك تعليم العبادات للصبيان، بحيث إن بعض هذه العبادات ينوب فيها المعلم مناب الآباء والأمهات، كأمر المتعلمين بالصلاة وهم أبناء سبع وضربهم عليها وهم أبناء عشر، قال ابن سحنون: "وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر، وكذلك قال مالك، وحدثنا عنه عبد الرحمن،

[15] ا حامد سالم عايض الحربي، لتربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نشأتها وتطورها،رابطة العالم الإسلامي، 1419 هـ ، ص: 95.

قال: قال مالك يضربون عليها بنو عشر ويفرق بينهم في المضاجع، قلت الذكور والإناث؟ قال: نعم".[16]

هذا هو التعليم المتكامل للطفل الذي يرجى منه أن يكون مواطنا صالحا، بحث يجب أن تلزم الجهات الوصية القائمين على تعليم الناشئة بتعليمهم الوضوء والصلاة تعليما تطبيقيا عمليا، لأن هذا داخل في المقومات الحضارية للأمة التي ينتمي إليها المتعلم، قال سحنون: "ويلزمه أن يعلمهم الوضوء لأن ذلك دينهم".[17]

وقول سحنون: لأن ذلك دينهم، يوحي إلى أن التربية على الوضوء والصلاة وغيرها من العبادات، يعد حقا للمتعلم، ومكونا من مكونات شخصيته التي تسهم في تربيته تربية حسنة صالحة متكاملة ومتوازنة.

قد يكون في عرف الإنسان في سياق حضاري ما أن تعليم الأولاد الدين في المدارس أمر غير ضروري، لكنه عند الله تعالى واجب شرعي على كل من ولاه الله تعالى أمر التربية والتعليم، ويلزم القائم على التعليم أن يستحضر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة"[18].

وعطفا على ما سبق نتبين وجاهة ما ذهب إليه المستشار علي جريشة حينما قال: "وشهد العالم لأول مرة نظرية شاملة متكاملة، تجمع بين الرغب والرهب، والدنيا والآخرة، والواقع والمثال، وترعى الإنسان بكل طاقاته وإمكاناته".[19]

---

[16] محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق: محمد العروسي المطوي، دار الكتب الشرقية، تونس، 1392هـ، 1972م.، 109.

[17] نفسه.

[18] أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم الحديث: 7150.

[19] علي جريشة، نحو نظرية للتربية الإسلامية، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، 1986م، ص: 24.

ومما يؤيد تفرد النظام التربوي الإسلامي بالتكامل في التربية والتعليم، تنوع المدارس التربوية في تراثنا الإسلامي، فظهرت مدرسة المحدثين والفقهاء، ومدرسة التصوف، ومدرسة الفلسفة، ومدرسة علماء الكلام، وكان لكل مدرسة خصائصها ومميزاتها واهتماماتها، لكنها جميعها كانت تستنير بروح القرآن الكريم والسنة النبوية والتصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون.

ويذكر علي جريشة تنوع المدارس العلمية والفكرية والتربوية في تاريخ الحضارة الإسلامية بهذا التفصيل:

مدرسة المحدثين والفقهاء:

ولئن بدأت هذه المدرسة منذ القرن الثالث، في توافق بين المدرستين إلا أنه مع القرن الرابع بدأت تتميز مدرسة المحدثين بالوقوف عند التراث، ومدرسة الفقهاء (أو مدرسة الرأي) بالغوص في الأدلة والتفريع عليها والنظر فيما تركه الأئمة ومن ثم اعتمد كل فريق طريقه أساسا للتربية.

مدرسة التصوف :

تبلورت الصوفية في القرن الثالث، وبدأت تصوغ أصولها في تهذيب النفس وتزكيتها، ولم تكن على النحو الذي يراه الناس الآن انحرافا عن سنة رسول الله من، أو اتباعا للبدع. واستمرت تضع المنهج لتربية المريد نظريا وعمليا (...) وإن غيرت بعد ذلك وبدلت.

ومدرسة الفلسفة:

وفيها كان الاهتمام بالمنهج العقلي، والمنطق والجدل واستخدم ذلك كله في قضايا الإيمان كما استخدم في منهج التربية الإسلامية.

مدرسة علماء الكلام :

واتسمت هذه المدرسة في مجال التربية بما يلي :

- التوسع في المناظرة، وقد بقى علماء السنة بعيدا عن هذا الميدان ثم ولجوه.

- الأخذ على التحديث من الذاكرة - بمقولة إن المحدث لا يسلم من الخطأ

- استمرار الأساليب الأخرى: كالإملاء، والاجازة، والاسئلة والقراءة".[20]

ومع تعدد وثراء هذه المدارس التعليمية التربوية فقي تاريخ حضارتنا الإسلامية، فإنني في هذا البحث أكتفي بمدرسة الفقهاء، إذ الفقهاء كغيرهم من علماء ومفكري هذه الأمة، تعلموا الفقه من شيوخهم وأساتذتهم، ثم مارس أغلبهم –إن لم نقل كلهم- وظيفة التربية والتعليم، فاكتسبوا بذلك خبرة عظيمة تطورت عبر التاريخ والزمن والبيئة، حتى كانت لهم في ذلك كتب ومصنفات في غاية الأهمية، وكذلك نجد من أمتع ما أنتجه الفقهاء فيما يتعلق بالتربية والتعليم، تلك الإشارات النيرة في الفتاوى والنوازل التي تزدان بها الموسوعات الفقهية وكتب النوازل خاصة في الغرب الإسلامي.

3: التعليم عند الفقهاء شرف يتمنونه وأمانة يخشونها

إن التعليم لدى الفقهاء ليس بالأمر الهين السهل، فلم تكن مهنة يتوق إليها من أراد كسب المال، أو بلوغ منزلة اجتماعية، وإنما كانوا يرونه وسيلة من أعظم وسائل نشر الإسلام عقيدة وشريعة ومعاملات وسلوكا وأخلاقا وغير ذلك، وفي نفس الوقت كانوا يخشون ألا يوفوا هذه الأمانة حقها، وهذا هو المطلوب اليوم بين صفوف المدرسين ومن يشرف

[20] علي جريشة، نحو نظرية للتربية الإسلامية، ص: 25-26.

عليهم، أقصد القصد التعبدي لله تعالى في التعليم، وليس مجرد وظيفة اجتماعية يتولاها فرد من أفراد المجتمع.

ولشرف التعليم فقد كان يتمناه الصادقون من أهل العلم، منهم: أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان داود الصواف، الذي قال في قصيدة شعرية له:

"تمنيت طول العمر أحيا مؤدبا وأسلك في التعليم للعلم منهجا"[21].

وقد كان رحمه الله شيخا معلما مؤدبا، حسن التعليم والتأديب، وهو الذي قال يصف لطالب العلم المنهج الصحيح: "يا طالب العلم، إذا طلبت العلم فاتخذ له قبل طلبه أدبا تستعين به على طلبه، واتخذ له بعد طلبه أدبا تستعين به على حمله. ومن أدب العلم الحلم، والحلم كظم الغيظ، وأن يغلب علمك وحلمك هواك إذا دعاك إلى ما يشينك. وعليك بالوقار والتعفف والرزانة والصيانة والصمت والسمت الحسن، والتودد إلى الناس ومجانبة من لا خير فيه، والجلوس مع الفقهاء ومحبة الأخيار، ومنابذة الأشرار والقول الحسن في إخوانك والكف عمن ظلمك. ولا تهمز أحدا بقول ولا تلمزه ولا تقل فيه ولو كان عدوك. فإن فعلت ذاك شرفت عند العقلاء، وعرفت حقك الجلساء، ولحقت بالعلماء، وهابك السفهاء، وحللت محل الأبرار، وبرئت من الأشرار. فافهم وتفهم واستعن بالله يعنك"[22].

---

[21] أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، راجعه: محمد العروسي المطوي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1414 هـ - 1994 م.1/ 510.

[22] نفسه، 1/ 506.

ولكثرة خوف بعض أهل الفقه من هذه الوظيفة الخطيرة، فهناك من اعتزلها لما وجد أن شروطها وحقوقها عظيمة في ديننا الإسلامي، ومن الطرائف التي نذكرها في هذا المقام أن أحد أهل الفقه وهو أبو إبراهيم ابن العربي، المتعبد الذي كانت له دراية كبيرة بالتعليم، كما قال عبد الله بن محمد المالكي في رياض النفوس: "كانت له فراسة فضّله الله تعالى بها، فمن ذلك أنه كان إذا أقرأ الصبيان أعشارهم يقول لطفل (منهم): اقرأ أنت يا شصّ، ويكثر من قول ذلك، فإذا كبر الطفل تسرّق وتلصّص وصحّت فيه فراسة أبي إسحاق-رحمه الله تعالى-وبصيرته"[23].

ومع كل هذه التجربة القيمة في التعليم لأبي إبراهيم ابن العربي فقد تخلى عن التعليم بسبب كتاب ألفه ابن سحنون رحمه الله، قال عبد الله بن محمد المالكي: "ولما قرأ كتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون-رضي الله عنهم-ترك التعليم وقال: لله عزّ وجلّ عليّ لا علّمت أبدا. وذلك أنه خاف أن يضعف عن القيام بالشرائط التي فيه، فتركه تورعا[24].

ومن الطرائف المكملة لهذا الموقف أن أبا إسحاق الجبنياني الذي كان معلما للصبيان يقول: "رحم الله محمد بن سحنون، لو علّم لرفق بالمعلمين - يريد لأنه شدد عليهم في كتابه"[25].

وهذه العبارة التي نطق بها أبو إسحاق الجبنياني، لا تزال مترددة إلى اليوم على ألسنة كثير من المدرسين، حاصة أولئك المخلصين في

---

[23] نفسه، 2/ 353.

[24] نفسه.

[25] القاضي عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ)، المحقق: ابن تاويت الطنجي، عبد القادر الصحراوي، محمد بن شريفة، سعيد أحمد أعراب، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى، 1402هـ، 1982م، 6/ 245.

أعمالهم، فإنهم يتفانون كثيرا في القيام بهذه المهمة على أحسن وجوهها، كما أنه إلى يومنا هذا توجد هوة واضحة بين من يخطط للتعليم من داخل المكاتب، وبين من يمارس مهمة التعليم في الفصول والأقسام والمؤسسات.

التكامل في شخصية الطفل المتعلم هو أول هدف يجب أن تسعى نحوه الأمم جميعا، وإن الحضارات الإنسانية لن تسعد في حياتها إلا إذا اعتمدت على منهج تعليمي متكامل لأطفالها وأجيالها الناشئة، فلا ينبغي أن يعبأ ببعض نتائج التعليم الذي يهمل تكامل الإنسان من الناحية المادية والروحية أولا، ثم من ناحية تكامل العلوم والمعارف التي يجب أن يكتبها هذا المتعلم، ثم التكامل في الطرق والوسائل والأساليب والجهات المتدخلة في تعليم هذه الأجيال من الناشئين.

ومن أجل ذلك كانت "طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئا ولا تغفل عن شيء؛ جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض"[26].

4: علاقة التربية والتعليم بالفقيه والمفتي في الحضارة الإسلامية

نشأ التعليم في الحضارة الإسلامية بعد نزول القرآن الكريم، وانطلق هذا التعليم على يد النبي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، يعلم أصحابه، ويزكيهم، ويدلهم على الخير، ثم أمرهم عليه الصلاة والسلام بتعليم الناس، وجعل الخيرية في التعليم، كما في حديثه الشريف عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم

[26] محمد قطب، منهج الربية الإسلامية، دار الشروق، ودار الثقافة، طبعة، 1997، 18/1.

قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[27]، قال: وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان، حتى كان الحجاج قال: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا"[28].

منذ ذلك الحين انطلق حفاظ القرآن والفقهاء والعلماء يعلمون الناس، فامتزج التعليم بحياتهم تعلما وتعليما، وبيانا للأحكام الشرعية المتعلقة بالتربية والتعليم، لأن الإسلام منهج كامل للحياة بكاملها، فكان من حق الفقيه أن يبين الأحكام المتعلقة بالتربية والتعليم، في الحضارة الإسلامية، لأنه هو الذي أنشأه، وهو الذي أسهم فيه وبناه، وهو الذي قعد للإقراء والتعليم والتدريس، فلا غرابة في أن يكون له رأيه في توجيه سير التعلم والتعليم في البلاد الإسلامية، إذ الفقيه قد جمع مميزات في غاية الأهمية؛ فمنها أنه مارس التدريس بالتجربة العملية في المساجد والمدارس، ومنها أنه استفاد من تجارب الآخرين الذين درس عندهم وتعلم منهم، ومنها أنه ينطلق في الحديث عن التربية والتعليم من أصوله الحضارية والثقافية إضافة إلى مراعاة البيئة التي يدرس فيها.

والتربية في حضارتنا لا تنفصل عن الدين لأنه نشأت في أحضانه، ولا تنفصل عن ابتكار أساليب وطرق ونظريات في التعليم، لأن ديننا دين الاجتهاد ومواكبة الحياة، غير أن هذا الدين يبقى بقواعده وضوابطه قيوما على الحياة، وليست الحياة قيومة على الدين الإسلامي. ولذلك

---

[27] أخرجه البخاري وغيره، في كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث: 5027.

[28] قائل هذا الكلام، ما رجحه الحافظ ابن حجر من أنه: أبو عبد الرحمن السلمي. ينظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز دار المعرفة - بيروت، 1379م، 77/9.

فاهتمامات الفقهاء والمفتين بالتربية والتعليم "لم تكن فكرية نظرية، وإنما هي في ظاهرها محاولة لتقديم الحلول الشرعية لما يطرأ على الجماعة الإسلامية من نوازل"[29] ولا شك أن نوازل التربية والتعليم من تلك النوازل.

إنه ليس من العيب إطلاقا أن يتصل التعليم بالفقه والفقيه، ولكن العيب – في حضارتنا – أن ينفصل التعليم عن الفقه والفقيه، لأنه حينئذ سيتجرد عن الأحكام الشرعية، وسيبقى طوع الأحكام البشرية، لينتقل التعليم بعد ذلك من تحكم بشر ذي مرجعية إسلامية منضبطة، إلى تحكم بشر ذي مرجعيات أخرى، أغلبها لا تزال تعاني اضطرابات واختلافات، في النوازع والأهواء والأهداف السياسية والاقتصادية، إلى حد فرض الهيمنة والتحكم.

لم يكن تدخل الفقه يوما ما حائلا بين التعليم والتقدم والتطور، بل كان تدخله تدخل توجيه وضبط، وربط بالمخزون الحضاري للأمة، وحفاظ على الهوية الثقافية والنبع الصافي للحضارة الأم العريقة القوية.

كم من تطور ظنه الإنسان تطورا، وهو في الحقيقة استتباع من حضارات مهيمنة لا غير، وكم من جديد ظنه الناس جديدا، وهو في الحقيقة تنميط وفرض للسيادة لا غير!

إذا تأملنا حركة السعي نحو الحداثة المستوردة في التعليم، ربما نجدها لم تقدم شيئا للجهة المستوردة، في الوقت الذي تنفع الجهة المصدرة لحداثة بمواصفات تزيد المستورد عجزا وتبعية فقط، لتصير تلك الحداثة المستوردة أكبر خطأ تقع فيه النخبة الساهرة على التربية

[29] ليلى سلامة، الصبي في الفقه المالكي، معيار الونشريسي أنموذجا، دار سحر، 2012م. ص: 33.

والتعليم، يقول محمود مصطفى حلاوي: "إن مفهوم الحداثة في التربية الغربية لا ينطوي بالضرورة على أفكار متقدمة ومتطورة، كما أن مفهوم القدم في التربية لدى المسلمين لا ينطوي بالضرورة –أيضا- على أفكار متأخرة أو غير متطورة، بل إن التربية الحديثة حديثة زمنيا فقط، والتربية الإسلامية قديمة زمنيا فقط، فلا حداثة التربية الغربية تجعلها متطورة ومتقدمة ومفضلة، ولا قدم التربية الإسلامية يجعلها متأخرة وضعيفة ومرفوضة، فكم من قديم فاق حديثا، وكم من حديث تأخر عن قديم"[30].

وإن النظر في محاولات كثير من الدول اليوم الاقتباس في التربية والتعليم من الدول الغربية، يجعلنا نرى التخبط الأعمى يميز التربية والتعليم عندها، فالمقتبس من الغرب في الغالب لا يصلح لبيئتنا كما يصلح لبيئتهم، ولا يناسب الإنسان عندنا كما يناسب الإنسان عندهم، وفي أحسن الأحوال يكون هذا المقتبس قد استنفد أغراضه في الغرب، ناهيك عن التدافع الحضاري القاضي بالسعي نحو السبق والتفوق، مما يجعل الغرب لا يمنح لغيره أسباب مساواته، أو التغلب عليه. وهذا واضح لكل من يدرك حركة التاريخ من قريب أو بعيد، لأن التقدم عن طريق التبعية ما هو إلا وهم عندما "نظن أننا نظمن لأنفسنا بهذا الاستغراق في التبعية للأجنبي، امتلاك أسباب التفوق عليه في ثقافته نفسها"[31].

[30] محمود مصطفى حلاوي، القابسي وفكره التربوي بين الأصالة والتجديد، مجلة التراث العربي، عدد: 31، سنة: 1988م، ص: 149.

[31] طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر،المؤسسة العربية للفكر والإبداع لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص: 38.

وإن النظر في كتب الفقه والنوازل يوما بعد يوم، يؤدي بنا إلى اكتشاف أسرار كثيرة ومزايا عظيمة كان يتحلى بها المجتمع الإسلامي في الغرب الإسلامي، هذه الأسرار التي صارت تكتشف يوما بعد يوم، نظرا لدأب كثير من الباحثين على استنطاق تراث النوازل الفقهية في الغرب الإسلامي.

تعد كتب النوازل من أخصب الكتب التي تصف لنا الحياة التي كان عليها أسلافنا، من جميع نواحيها؛ السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية، وغيرها، وفي تلك النوازل نتلمس الصورة الحية للفقيه وهو يتفاعل مع القضايا المجتمعية، باعتباره فردا من المجتمع نفسه، كما ندرك أهمية الثقة التي أولاها أفراد هذا المجتمع للفقيه؛ الذي كان مرجعا للناس في تبيين وتوضيح الطرق الصحيحة في التعامل مع ضرورات الحياة، فلم يكن الفقيه في معزل عن مجتمعه، ولم يكن المجتمع يوما ما في غنى عن الفقيه والمفتي، وهذا سر القوة في هذا المجتمع، وقد حدد الله تعالى هذا المنهج القويم في الحياة، في قوله عز وجل: ((وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا))[النساء: 83].

5: بعض ملاحظات حول النوازل الفقهية المتعلقة بالتعليم

5-1: اهتمام الآباء بتعليم أبنائهم وتتبعهم في مسيرتهم: لم يكن الآباء يلقون بأبنائهم إلى المؤدبين، ثم يتخلون عن مسؤولياتهم اتجاه أبنائهم، بل إنه من خلال الفتاوى التي نطالعها في كتب النوازل نجد أن الآباء كانوا يراقبون مستوى تعلم أبنائهم في البيوت.

إن المتعلم لا تقع مسؤولية تعليمه على المعلم في غياب تام للآباء والأمهات، فهو نتاج تعاون وتعاضد في التربية والتوجيه بين المعلمين ثم الآباء والأمهات، وهو ما يسمى اليوم: التعاون بين المؤسسة التعليمية ومؤسسة الأسرة، من أجل تنشئة المتعلم تنشئة سليمة متوازنة.

إننا نجد في كتب الفقه والنوازل حضورا قويا للآباء في مسيرة تعلم أطفالهم، فالآباء لا ينفكون يلاحظون حركة تعلم أبنائهم فهم دائمو السؤال والاستفتاء حول علاقة أبنائهم بمتعلميهم، وقلما نجد كتابا من كتب النوازل يخلو من أسئلة يوجهها الآباء للفقهاء والمفتين في كل ما يتعلق بتعليم أبنائهم وعلاقتهم بمعلميهم ومؤدبيهم.

إن أغلب الأسئلة التي وجهت إلى فقهاء النوازل إنما صدرت من الآباء والأمهات، ولا يتسع هذا الموضع لذكر كل هذه النوازل نظرا لكثرتها وتعددها وتنوعها، ويكفي أن تراجع في مظانها من موسوعات كتب النوازل.

وهذا الاهتمام كما كان إراديا، فقد كان –أيضا- إلزاميا، ولهذا دعا الفقهاء الآباء إلى الاهتمام البالغ بتعليم أبنائهم، إلى درجة الإرغام على ذلك.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا منها قول الونشريسي: " وسئل [أبو محمد] عمن اشترط على أبي الصبي ختما وشرطوا ما لكل ختمة فوصل الصبي إلى قرب من الختمة نحو قد أفلح وسال سائل فيخرجه أبوه ويرده عند آخر، هل هي للمعلم عند قرب الختمة هل تجب أم لا ؟

فأجاب: إذا قارب الختمة وقد اشترطها وجبت للمعلم الأول، ولا يصح للمعلم الثاني شيء، ولو اشترطها المعلم الثاني على الأب لكان له ذلك، إلا أن يقول أبو الصبي ظننت لا يلزمني للأول شيء فيحلف عليه،

وكانت للأول ولو علم بوجوبها للأول واشترطها الثاني ورضي بذلك لزمه لهما، ولو مات الصبي عند قرب الختمة لزمت الأب، ولو ترك المعلم التعليم وقد قارب الختمة فلا شيء له فيها، قيل لأن الانفصال كان منه لا من الصبي.[32]

2-5: اهتمام الدولة بحركة التعليم في الجوامع وكل أماكن التعليم: لقد أوكل إلى المحتسب أمر مراقبة التعليم والتأديب، وتذكر لنا كتب الحسبة وكذلك كتب الفقه والنوازل معلومات راقية حول اهتمام الدولة بالتربية والتعليم.

فالدولة تشرف في أغلب الأحيان على إعداد المدرس وضبطه ومراقبته، كما تهتم بالمتعلم أيضا، وقد كان هذا معروفا في نظام الدولة الإسلامية، وهو ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته حيث يقول: "وأمّا الفتيا فللخليفة تصفّح أهل العلم والتّدريس وردّ الفتيا إلى من هو أهل لها، وإعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لأنّها من مصالح المسلمين في أديانهم، فتجب عليه مراعاتها لئلّا يتعرّض لذلك من ليس له بأهل فيضلّ النّاس. وللمدرّس الانتصاب لتعليم العلم وبثّه والجلوس لذلك في المساجد فإن كانت من المساجد العظام الّتي للسّلطان الولاية عليها والنّظر في أئمّتها كما مرّ فلا بدّ من استئذانه في ذلك وإن كانت من مساجد العامّة فلا يتوقّف ذلك على إذن. على أنّه ينبغي أن يكون لكلّ أحد من المفتين والمدرّسين زاجر من نفسه يمنعه عن التّصدّي لما ليس له بأهل فيضلّ به المستهدي ويضلّ به المسترشد (...) فللسّلطان فيهم لذلك من النّظر ما توجبه المصلحة من إجازة أو ردّ"[33].

---

[32] المعيار المعرب والجامع المغرب، 8 / 245-244.

[33] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، نهضة مصر، القاهرة، طبعة، 2004، 604/2.

وما جاء في حق المدرس، جاء في حق المتعلم الذي لم يجد من يتولى أمره، أو كان له ولي ذو استطاعة لكنه رفض أن يذهب به إلى حيث يتعلم المتعلمون، فحينئذ تتدخل الدولة للنظر في مصلحته.

ومن ذلك ما أفتى به القابسي في حق الولد الذي له مال ولكن مع ذلك منع من التعلم، فيرى القابسي أنه واجب على الأب تعليمه بذلك المال، فإن مات الأب فالولي، وإن مات الولي أو الوصي، وجب على حاكم المسلمين فعل ذلك، وإن عدم الحاكم اجتمع صالحوا البلد على ذلك، وذلك في قوله: "وأما إن كان للولد مال، فلا يدعه أبوه أو وصيه إن كان قد مات أبوه، وليدخل الكتاب ويؤاجر المعلم على تعليمه القرآن حسب ما يجب، فإن لم يكن لليتيم وصي نظر في أمره حاكم المسلمين، وسار في تعليمه سيرة أبيه أو وصيه، وإن كان ببلد لا حاكم فيه، نظر له في مثل هذا لو اجتمع صالحو ذلك البلد على النظر في مصالح أهله، فالنظر في هذا اليتيم من تلك المصالح"[34].

وقد حث الفقهاء على تدخل الدولة في تنظيم أمور المتعلمين ومعلميهم، ففي مسألة الختمة التي كان الآباء يؤدون أجرتها إلى المعلمين، قد يقع فيها النزاع، لذلك كان حكم الحاكم رافعا لهذا النزاع، فقد نقل القابسي قول ابن دينار: "سمعت مالكا يقول: تجب للمعلم الختمة على قدر يسر الرجل وعسره، يجتهد في ذلك ولي النظر للمسلمين"[35].

[34] أبو الحسن القابسي المالكي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق: علي بن أحمد الكندي المرر، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2009م، ص: 80.

[35] الرسالة المفصلة، 141.

إن الأنظمة التعليمية في الدول المعاصرة، تشدد كثيرا في الرقابة على التعليم، فوظفت عددا من الموظفين من أجل تلك المهمة، مثل التفتيش والمفتش، ونجد في الفقه الإسلامي ولاية من ولايات السياسة الشرعية في الدولة الإسلامية هي ولاية الحسبة، والتي كان في البداية يوكل إلى صاحبها أمر مراقبة السوق، ثم تطورت هذه الوظيفة من بعد ذلك لشمل مواضع أخرى منها المساجد ودور التعليم، فلم يكن التعليم في الحضارة الإسلامية عشوائيا، بل كان مراقبا مراقبة دقيقة، وذلك لأن نجاح الحضارات رهين بنجاح التعليم فيها، ولا ينجح إلا بتجويده ثم مراقبة جودته.

3-5: النظر في أهلية المعلم

ومما يحرص عليه المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية؛ أن يكون المعلم للصبيان قد توفرت فيه الشروط المؤهلة للتربية والتعليم وذلك لأن المعلم للصبيان نائب عن الآباء والأمهات، وهو الذي يصبغ المتعلم بما عنده من العلم والدين والخلق والسلوك، وهو الذي يصنع منه رجلا للمستقبل، وقد كان السلف رحمهم الله تعالى شديدي الحرص على نوع المعلم الذي يكلف بتعليم الصبيان، لأن المعلم كان ولا يزال، الحلقة الأهم في التعليم، مهما وقعت العقول في نظريات متعددة المصادر والمشارب، لذلك كان الناس – وخصوصا في الغرب الإسلامي – كثيرا ما يسألون الشيوخ والعلماء والفقهاء والمفتين عن نوازل تتعلق بأمر المعلم، وما يصدر عنه من محاذير، إما لضعف في التكوين العلمي، وإما لانحراف في العقيدة أو الخلق أو السلوك (...) كل ذلك إذا حصل فإن آثاره ستنعكس سلبا على المتعلمين، لذلك كان الآباء أشد ما يكونون حريصين على مراقبة أحوال المعلمين، واستفسار الفقهاء في بعض

أحوالهم حرصا على مصلحة أبنائهم، وحماية لهم من الانحراف الفكري والعقدي والسلوكي وغير ذلك.

قال ابن عبدون: "ويجب أن لا يكون المؤدب عزبا، ولا شابا، بل يكون شيخا خيرا دينا، عفيفا ورعا، قليل الكلام والشهوة إلى استماع ما لا يعنيه، وأن لا يحضر الجنائز البعيدة، ولا يكثر من البطالة، ولا يهمل الصبيان، ولا يزول عنهم إلا لأخذ الغذاء والوضوء، ويكون راتبا في مكانه، محافظا على حوائج صبيانه، ويجب للحاكم والقاضي إذا رأوا مؤدبا يكثر الإقبال إليهما في الشهادات، أن يسألاه عن الحضار، فإن كان صاحب محضرة، فلا تقبل شهادته، لأنه إنما يطلب الظهور، وأن يتسم باسم بالعدالة، ليرتشي أو توضع عنده الودائع وينال رفعة الذكر والشهرة في الخير، وهو عنهما بعيد. فإن لم تكن عنده محضرة وعرف خيره، وسمع القاضي حسن الثناء عليه، قبله، وإني لأعرف منهم جماعة بالوصف الذي وصفت، فيا أسفا عليهم مساكين".[36]

وإذا نظرنا اليوم إلى التربية والتعليم من وجهة نظر ابن عبدون، فكم من مسكين سنجده وقد وضعت أجيال من أبناء المسلمين في يده.

وهذا ما نجده عند المحتسبين في الغرب الإسلامي، منهم من كان محتسبا مؤلفا في الحسبة كالسقطي، ومنهم من ألف في الحسبة حتى وإن لم يمارسها، كابن عبدون وغيرهم، ولقد وصلتنا من عندهم نصوص رائعة في ضبط حركة التربية والتعليم من ذلك قول السقطي: "ومعلمو الصبيان يكونون بالشوارع العامرة بالناس وأصحاب الحوانيت، ولا يستخدمون ولدا في شيء من أمورهم ولا يسمحون بصبي تحمله امرأة إلى رجل ليكتب لهما أو يقرأ لهما، لما يتأتى بذلك من الحيلة على

[36] ابن عبدون، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، ص: 26.

أولاد الناس، ولا يضربون صبيا إلا تحت قدميه ثلاثا أو خمسا، ويراعون وقت غدائهم وتصرفهم فيما لا بد لهم منه من أحداثهم، ويأخذونهم بإقامة الصلوات معهم"[37].

قال ابن عبدون: "يجب أن لا يؤدب الصبي أكثر من خمسة أسواط للكبير، وثلاثة للصغير، وتكون من الشدة على قدر احتمالهم لذلك"[38].

وقال أيضا: "قطع المؤدبين عن إحضار الولائم والجنائز والشهادات واجب، إلا في يوم بطالة، فإنهم مستأجرون، لأمة جاهلة لا عقل لها مضيعون"[39].

وقال أيضا: "يجب للمؤدب أن لا يكثّر من الصبيان، ويمنعون من ذلك، وأنا أقول إنهم لا يفعلون، فإنه لا يقوم الواحد بخدمة الجماعة لا سيما التأديب، ولا يعلمهم شيئا على ما ينبغي، فالتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فإنها كالرياضة للمهر الصعب، الذي يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس، حتى يرتاض ويقبل التعليم، وأكثر المؤدبين جهال بصناعة التعليم، لأن حفظ القرآن شيء، والتعليم شيء آخر، لا يحكمه إلا عالم به، ومعنى التأديب أن يعلمه حسن الألفاظ في القراءة، والخط الحسن، والهجاء، ويأمر من كان كبيرا بالصلاة ويكتب له التشهد وما يقول في الصلاة (...) وليس شيء في الدنيا أنفع من شيئين: أما لمن يكتب ويقرأ، فإقامة الهجاء، وأما لمن يبيع ويشتري، فمعرفة الحساب"[40].

---

[37] نفسه. ص: 68.

[38] ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م، ص: 25.

[39] نفسه.

[40] المرجع السابق.

4-5: وجوب اتخاذ المؤدب في القرية أو إجبارية التعليم

ومن علامات دعوة الفقهاء إلى تدخل الدولة في فرض نظام تعليمي ناجع في المجتمع الإسلامي، إجبار سكان القرى على اتخاذ مؤدبين تتوفر فيهم شروط التأديب والتعليم من أجل نشر القرآن الكريم والعلم في القرية وتعليم الأطفال وتنشئتهم التنشئة السليمة الصحيحة، قال الونشريسي: "وسئل سيدي عيسى عن قرية بها جماعة فامتنع بعضهم من إقامة الجماعة وبناء المسجد وأخذ المؤدب لقراءة أولادهم، فهل يجبرون على ذلك؟ إذ في عدمه تعطيل المساجد وإقامة السنة وتضييع القرآن أم لا؟ فإن قلتم بجبرهم ولم يجدوا من يَؤم، فهل يُجبرون على أجرة الإمام وتوزع على رؤسهم؟

فأجاب: جبرهم[41] على بناء المسجد واجب، وكذا جبرهم على مؤدب أولادهم.[42]

في هذه الفتوى إشارة إلى ضرورة تعميم التعليم في البلاد والمدن والقرى والأرياف إلى حد الإجبار على ذلك، وفي زماننا نسمع كثيرا عن إجبارية التعليم، وهاهم فقهاؤنا يشيرون إلى هذه الضرورة في فتاويهم.

ولقد شاع في عصرنا ما يسمى بإجبارية التعليم، للذكور والإناث على حد سواء، والغريب في الأمر أن كثيرا ممن لم يتعامل مع كتب التراث يخيل إليه أن هذه الأشياء من حسنات الحضارة الغربية في تطورها، بينما نحن حينما ننظر في كتب التراث نجد عبقرية المجتمع

[41] جبرهم بمعنى: إجبارهم، ولا يخفى على قارئ المعيار ما فيه من اختلاط الفصحى بالعامية نظرا لطبيعة المجتمع في ذلك العصر.

[42] أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، حققه جماعة من الفقهاء، بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ودار الغرب الإسلامي ببيروت، الطبعة الأولى،1401هـ، 1981م، 1/ 183.

الإسلامي في نظرته إلى التعليم، ذلك لأن تعليم الصبيان القرآن الكريم وما يتبعه من العلوم، هو الأقدر على حماية عقل الولد، وكذا تمكينه من ثقافة علمية إسلامية متكاملة، ولو تأملنا في السؤال التالي الذي أورده الإمام الونشريسي في معياره لأدركنا ذلك تماما.

قال الونشريسي: وسئل (القابسي) هل يجبر الرجل أن يجعل ابنه في الكتاب ويجبره القاضي، والذكر والانثى سواء؟ فإن لم يجبر فهل يوعظ؟ وهل الوصي كالأب في الجبر أولا؟ فإن لم يكن وصي فهل ذلك للإمام أو للولي أو للمسلمين من ماله إن كان أو على المسلمين إن لم يكن؟ أو على المعلم بغير شيء؟ وهل إن امتنع الأب يسجنه الامام أو يضربه على ذلك وهل تقوم الجماعة مقام الأب في جبره إن لم يكن أم لا؟

فأجاب: بقوله صلى الله عليه وسلم: (خياركم من تعلم القرآن وعلمه)[43]. يشمل الوالد بتعليمه ولده إياه ولو بأجرة تعليمه العلم. ولقد أجاب ابن سحنون أبا كان ابنه يطلب العلم عن قوله له: أنا أتولى العمل بنفسي ولا أشغله عما هو فيه أجرك في ذلك أعظم من الحج والرباط والجهاد، وقال: إن ترك الأب تعليم ولده القرآن لشح قبح فعله وإن كان لقلة ما بيده عذر، وإن كان للولد مال فلا يدعه دون تعليم وليه أو قاضي بلده أو جماعة المسلمين إن لم يكن قاض، فإن لم يكن له مال توجه حكم الندب على وليه، وإلا فالأقرب فالأقرب"[44].

5 -5: حول وجوب تعليم الوالد ولده

شاع في عصرنا ما يسمى بإجبارية التعليم، للذكور والإناث على حد سواء، والغريب في الأمر أن كثيرا ممن لم يتعامل مع كتب التراث يخيل

[43] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث: 5027.

[44] المعيار للونشريسي، ج: 8، ص: 249-250.

إليه أن هذه الأشياء من حسنات الحضارة الغربية في تطورها، بينما نحن حينما ننظر في كتب التراث نجد عبقرية المجتمع الإسلامي في نظرته إلى التعليم، ذلك لأن تعليم الصبيان القرآن الكريم وما يتبعه من العلوم، هو الأقدر على حماية عقل الولد، وكذا تمكينه من ثقافة علمية إسلامية متكاملة، ولو تأملنا في السؤال التالي الذي أورده الإمام الونشريسي في معياره لأدركنا ذلك تماما.

قال الونشريسي: "وسئل هل يجبر الرجل أن يجعل ابنه في الكتاب ويجبره القاضي، والذكر والانثى سواء؟ فإن لم يجبر فهل يوعظ؟ وهل الوصي كالأب في الجبر أولا؟ فإن لم يكن وصي فهل ذلك للإمام أو للولي أو للمسلمين من ماله إن كان أو على المسلمين إن لم يكن؟ أو على المعلم بغير شيء؟ وهل إن امتنع الأب يسجنه الامام أو يضربه على ذلك وهل تقوم الجماعة مقام الأب في جبره إن لم يكن أم لا؟

فأجاب: بقوله صلى الله عليه وسلم: (خياركم من تعلم القرآن وعلمه)[45]. يشمل الوالد بتعليمه ولده إياه ولو بأجرة تعليمه العلم. ولقد أجاب ابن سحنون أبا كان ابنه يطلب العلم عن قوله له: أنا أتولى العمل بنفسي ولا أشغله عما هو فيه، أجرك في ذلك أعظم من الحج والرباط والجهاد، وقال: إن ترك الأب تعليم ولده القرآن لشح، قبح فعله وإن كان لقلة ما بيده عذر، وإن كان للولد مال فلا يدعه دون تعليم وليه أو قاضي بلده أو جماعة المسلمين إن لم يكن قاض، فإن لم يكن له مال توجه حكم الندب على وليه، وإلا فالأقرب فالأقرب".[46]

الخاتمة

[45] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم الحديث: 5027.

[46] المعيار للونشريسي، ج: 8، ص: 249-250.

لقد كان معظم الفقهاء ممارسين لوظيفة التربية والتعليم، إضافة إلى وظيفة التصنيف والإفتاء، ولذلك كانت نظراتهم إلى التربية والتعليم نظرات ثاقبة ودقيقة، وكانت صالحة جدا لاستثمارها في إنشاء نظريات تربوية في الحضارة الإسلامية، خاصة وأن هذه الطرق والأفكار التربوية التي دونها وبينها الفقهاء كانت عملية أكثر مما هي نظرية، وذلك راجع إلى طبيعة الفقه الإسلامي الذي هو العلم بالأحكام العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية.

وإن التراث الفقهي يجمع الكتب المتخصصة في الفقه الإسلامي، وكتب النوازل الفقهية التي هي أيضا كتب فقهية، وكذلك كتب الحسبة. وهذا ما يتطلب البحث فيه كله من أجل جمع المعلومات والأحكام التربوية ثم تصنيفها وتحليلها واستثمارها في بناء نظريات تربوية تصلح لتكوين أجيال من المتعلمين ذوي تربية إسلامية وعلمية وعملية متكاملة تستجيب لطبيعة المجتمع الإسلامي عوضا عن الاقتراض التربوي من الغرب كما نشهد في كثير من الدول العربية في عصرنا الحالي.

نتائج البحث:

وقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى نتائج أهمها:

- التراث الإسلامي تراث متكامل، لذلك فكما نجد المتكلمين والمحدثين والفلاسفة قد تحدثوا في التربية والتعليم، فكذلك نجد الفقهاء يهتمون بالتربية والتعليم، تنظيرا وممارسة، ويزيد الفقهاء على ذلك بأن بينوا الحكم الشرعي من حيث الوجوب والجواز وغير ذلك في كثير من القضايا التربوية.

- الفقهاء وما أنتجوه من التراث التربوي أولى بأن يستخرج منه أسس نظريات تربوية، خاصة وأن الفقهاء نظروا للتعليم ومارسوه في نفس الوقت.

- آراء الفقهاء في التربية والتعليم أقوى من غيرهم في كثير من الأحيان، وذلك لأن الفقهاء مهمتهم بيان الأحكام الفقهية العملية الواقعية، فالفقهاء أكثر التصاقا بالواقع وتشعباته وتعقيداته.

- لا يمكن أن نحقق إقلاعا حضاريا تربويا إلا من خلال تراثنا الإسلامي المتكامل، ومنه الفقه الإسلامي.

التوصيات:

وبعد هذه الجولة المتواضعة في تطور التراث التربوي الإسلامي في الفقه الإسلامي، نشير إلى بعض التوصيات ذات الأهمية الكبرى، وهي كالآتي:

- إن الحضارة القوية هي التي تمتلك نظريات تزاحم بها غيرها من الحضارات وتنافسها، حيث تكون هذه النظريات مؤسسة على أصولها العقدية وهويتها الثقافية، لذلك وجب على هذه الأمة أن تفكر في صياغة نظريات تربوية بكل جد واجتهاد وحزم وقوة، وذلك بتحويل القول إلى فعل.

- لا بد من استنطاق كل التراث الإسلامي خاصة ما يتعلق بالفقه الإسلامي، بحيث يعد هذا المجال أشبه بعلم الاجتماع الذي يرصد العوامل المؤثرة في تطور المجتمعات البشرية، بحيث إذا جمعنا كل المعلومات المتعلقة بالتربية والتعليم في تراثنا الفقهي، سنكون قد هيأنا الأرضية الصلبة لتأسيس نظرية تربوية مستقلة تليق بإنسان الحضارة الإسلامية.

- لا بد من مأسسة الدراسات المسحية والكشفية والتحليلية، إذ الفرد الواحد أو العدد القليل من الأفراد الباحثين غير قادرين على الإحاطة الشاملة بالموضوع.

- ضرورة تغيير أسلوب البحث في التراث التربوي الإسلامي من مجرد تناول مناهج الأقدمين في التربية والتعليم إلى البحث عن الخيط الناظم بين كل هذه النماذج لأجل معرفة القاسم المشترك أو القواسم المشتركة بين الأعلام، بحيث يمكننا ذلك من الوقوف على الوحدة العضوية بين تلك المناهج وإن ظهرت بينهم بعض الاختلافات الفرعية والجزئية، لكن يبقى الأصل واحدا.

المصادر والمراجع

* ابن أبي حاتم الرازي (المتوفى: 327هـ)، الجرح والتعديل، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1271 هـ 1952 م.

* ابن عبدون، ابن عبد الرؤوف، عمر بن عثمان الجرسيفي، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م.

* ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

* أبو الحسن القابسي المالكي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، أبو تحقيق: علي بن أحمد الكندي المرر، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2009م.

* أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، حققه جماعة من الفقهاء، بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ودار الغرب الإسلامي ببيروت، الطبعة الأولى،1401هـ، 1981م، 1/ 183.

* أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، عبد القادر الصحراوي، محمد بن شريفة، سعيد أحمد أعراب، الناشر: مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة: الأولى، 1402هـ، 1982م.

* أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ - 1995م.

* أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، راجعه: محمد العروسي المطوي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1414 هـ - 1994 م.

* أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992م.

* أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين

الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز دار المعرفة - بيروت، 1379م، 77/9.

* البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ.

* حامد سالم عايض الحربي، التربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نشأتها وتطورها، رابطة العالم الإسلامي، 1419 هـ .

* طه عبد الرحمن، من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، المؤسسة العربية للفكر والإبداع لبنان- بيروت، الطبعة الأولى، 2016.

* عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد الواحد وافي، نهضة مصر، القاهرة، طبعة، 2004م.

* عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، الطبعة الأولى، 1996م.

* علي أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: 1014هـ)، شرح مسند أبي حنيفة، تحقيق: الشيخ خليل محيي الدين الميس، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1405 هـ - 1985 م.

* علي جريشة، نحو نظرية للتربية الإسلامية، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، 1986م.

* ليلى سلامة، الصبي في الفقه المالكي، معيار الونشريسي أنموذجا، دار سحر، 2012م.

* محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق: محمد العروسي المطوي، دار الكتب الشرقية، تونس، 1392هـ، 1972م.
* محمد قطب، منهج الربية الإسلامية، دار الشروق، ودار الثقافة، طبعة، 1997م.
* محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مطبوع مع كتاب المتنبي، مكتبة الخانجي، 1987م.
* محمود مصطفى حلاوي، القابسي وفكره التربوي بين الأصالة والتجديد، مقال بمجلة التراث العربي، عدد: 31، سنة: 1988م.
* مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.